

مهند عبد الحميد (*)

عن رؤية الآخر: الأدب الأشجع في كشف المستور وطرح الأسئلة

جلسنا، فبكينا عندما تذكرنا صهيون/ كيف نشد نشيد الرب في أرض غريبة / فإن نسيك يا أورشليم فلتنسي يميني . . . " .
لكن الروائي يقول على لسان معلم مدرسة عراقي في سياق السرد: الديانة الإسلامية نشأت في الجزيرة العربية وانتشرت في العراق وغيرها، أما ديانتم اليهودية فهي عراقية صميمة نشأت في العراق لا في فلسطين. ويضيف المعلم " كل كتب التوراة والتلمود كتبت هنا على أرض بابل، كل أنبيائكم مدفونون هنا في العراق " .

باب إيلو، التي تعني بوابة الإله، أي بابل هي مدينة عراقية تاريخية، تقع جنوبي بغداد على بعد ٨٥ كيلو مترا على نهر الفرات، اشتهرت بحضارتها التي ازدهر فيها الفلك والفنون والعلوم والتجارة والقانون وبخاصة شريعة حمورابي، وكانت عاصمة البابليين منذ العام ١٧٥٠ قبل الميلاد. وقام الملك البابلي

(*) الكتاب: " على ضفاف بابل " (رواية)

By the rivers of babylon

(*) الكاتب: خالد قشطيني

(*) الناشر: دار رياض الريس - بيروت ٢٠٠٨

(*) عدد الصفحات: ٢٣٠ صفحة

(*) هذه الرواية صدرت باللغة الانكليزية بالعنوان المبين أعلاه عن دار النشر البريطانية (كوارتيت) وقامت دار رياض الريس بترجمتها ونشرها بالعربية. عنوان الرواية باللغة الانكليزية هو العنوان ذاته لأغنية (فريق البوني إم) " على ضفاف أنهار بابل " . كلمات الاغنية مغايرة لمضمون وأفكار الرواية. والأغنية هي نص المزمور ١٣٧ " نشيد المنفى " ومن كلماتها: " على أنهار بابل هناك

* كاتب فلسطيني - رام الله.

على ضفاف بابل

رواية



نبوخذ نصر بسبي اليهود من مملكة يهودا الى بابل وسميت العملية بالسبي البابلي وبلغ عدد المسبيين آنذاك ١٤٠ الفا . لكن قورش الفارسي الذي انتصر على الإمبراطورية البابلية العام ٥٣٩ ق . م سمح لهم بالعودة فعاد ٤٠ الفا فقط وبقيت الأكثرية في بابل . اختيار الأديب قشطيني لعنوان الرواية لم يكن بلا مغزى ، هل قصد به حدوث سبي مضاد للسبي البابلي ، أم انه يقدم بابل كنموذج لنجاح حضارة الرافدين في بناء التعايش والاندماج بين المكونات العرقية والاثنية والدينية خلافا للنموذج الإسرائيلي . واختيار اسم عبد السلام بطلا للرواية ، هل المقصود به اندماج اليهود في الثقافة العربية بما في ذلك استخدام الاسم الذي يبدأ بـ " عبد . . . " وهو غير مستخدم بتاتا لدى اليهود . أم ان ذلك كان هفوة عابرة؟

احتل اليهودي او الإسرائيلي او الصهيوني حيزا في الأدب العربي ، وكان يأتي في سياق دحض الفكر الصهيوني وفي الوقت عينه تقبل الديانة اليهودية واليهود ، كما تقول دراسة د . عادل الأسطة " صورة اليهودي في الأدب العربي " ، تلك الدراسة النقدية التي عرضت الحيز الذي احتله اليهود في روايات عبد الرحمن منيف وممدوح عدوان وزياد قاسم وإلياس خوري وأمين معلوف وغسان كنفاني ورياض بيدس .

الأدب العربي كما الأدب الإسرائيلي يدور حول نقطتين : صورة سلبية ناشئة عن عوامل تاريخية نفسية دينية سياسية وأبرز تجسيد لها هو الكراهية والعداء . وصورة إيجابية تتحرى أقصى درجات الموضوعية في أثناء معالجة القضايا المشتركة وكان أهم نموذج عربي لها مسرحية " الاغتصاب " للمسرحي السوري سعد الله ونوس ، الذي لم يقدم الإسرائيلي كعدو مكروه ، ورفض الخطابة والحماسة للفلسطيني ايضا ، وانطلق من فكرة أن الكراهية المطلقة تُسَوِّغُ فعل كل شيء ، ولا يوجد إنسان يتبنى الكراهية المطلقة ولا يتداعى ، كما يقول سعيد علوش في دراسة منهجية حول مسرحية " الاغتصاب " . وجاءت رواية " السيدة من تل أبيب " لرعي المدهون ورواية " العقرب الذي يتصبب عرقا " لأكرم مسلم في سياق هذا الطراز من المعالجة والرؤية الموضوعية للآخر .

أمين معلوف في " سلالم الشرق " وإلياس خوري في " مملكة الغرباء " و " باب الشمس " عززا فكرة سعد الله ونوس في

مسرحية " الاغتصاب " . ثم جاءت رواية " على ضفاف بابل " لتطرح الإشكالية برمتها من خلال حكاية الطبيب العراقي اليهودي .

" على ضفاف بابل " أول رواية تقدم المسكوت عنه ، وهي تعطي البطولة لشخصية يهودية مرموقة اجتماعيا ومهنية . عمل أدبي يتوقف بسرده الشيق عند مكانة اليهود العراقيين في مجتمعهم الطبيعي ، ويكشف بصراحة أدبية العوامل الداخلية التي تضافرت مع العوامل الخارجية في استئصال جزء حيوي من نسيج المجتمع العراقي وفي دفعه الى الخارج . " على ضفاف بابل " دراما اجتماعية وسياسية مثيرة ، تعتمد الواقعية والسخرية والتوحد الجمالي مع المكان .

تتمحور الرواية حول قصة نجاح عبد السلام ساسون العراقي اليهودي ، كمواطن وطبيب مندمج في المجتمع العراقي ،

وكنصر حيوي في النخبة المثقفة والمزدهرة، ذلك النجاح الذي تعصف به التحولات السياسية الدولية - الحرب العالمية الثانية وإقامة دولة إسرائيل - وتهزمه قيم المجتمع الذكوري الذي لا يرحم المرأة.

"سميرة" فتاة مراهقة تقع في غرام الشاب "حسن"، وسرعان ما تستسلم لجاذبيته ودعابته، فتشاركه العشق في لقاءات سرية بعيدا عن أنظار أسرة "الحاج نوفل" الميسورة التي تنتمي لها سميرة. ولم يمض طويل وقت حتى تحول فرح العشيقين الى مصيبة، وذلك عندما اكتشفت الأسرة تكور بطن سميرة، اكتشاف الحمل وضع كل ذكور الأسرة أمام تحد مصيري. فيبادر شقيقا سميرة المسلحان بسوق شقيقتيهما المتهمة الى عيادة أشهر طبيب نسائي في بغداد هو الدكتور عبد السلام ساسون. تبدت سميرة في كتلة بشرية متدثرة بالعباءة السوداء، ترتعد فرائصها خوفا من المصير الآتي. الشقيقان المتجهمان يجلسان في صدر العربة التي تم استئجارها، وتجلس سميرة تحت اقدامهما في المقعد السفلي. منظر يلفه الصمت والغموض تشبه لحظة ما قبل العاصفة. ترجل الشقيقان ومعهما "التهمة" ودخلا غرفة الطبيب ساسون ليقول قولته. الطبيب يعترف تحت تهديد السلاح بأن سميرة حامل، ويتعهد لهما بأنه سيخلصهما منها في إشارة ضمنية الى قتلها كما يرغب الشقيقان.

تختفي "سميرة" ولا أحد يعرف مصيرها بعد الصفقة المشينة التي أبرمت تحت تهديد السلاح بين الطبيب وأسرته. ويتشرد الشاب "حسن" فيعمل حفارا للقبور ويسكن بين الأموات ويتنقل متخفيا من مكان لآخر، خشية من انتقام عائلة سميرة، والانتقام في هذه الحالة يكون بالقتل. أما الدكتور ساسون فيصاب بمرض نفسي يسلبه القدرة على مواولة مهنة الطب، فيخسر جميع مريضاته من نساء الطبقة العليا البغدادية. ويعيش حالة من "التثبيت" على تلك اللحظة المريضة التي اضطرت له لاتخاذ "موقف" يتناقض مع قناعاته. ظل الطبيب المريض يردد على مسامع الناس: لا، لم اقلها!!!. ويتحول من معالج متألق لأمراض صفوة القوم، الى شخص مريض يبحث عن أطباء لعلاجهم، وتتنقل به زوجته "تفاحة" من طبيب لآخر دون ان يفلح أحد في علاجه، وأخيرا تستجيب زوجته لقرار أصدقائه من الأطباء بتحويله الى مستشفى الأمراض العقلية.

مأساة "سميرة وحسون" ومصيبة ساسون تلقي الضوء على الحياة الاجتماعية وتناقضاتها في عراق الأربعينيات من القرن العشرين. ينتقل السرد الأدبي في هذا المجال من المعلن الى المخفي. المعلن يوحى بوجود مجتمع مدني متحضر يملك مقومات التطور. ويمكن التعرف عليه هنا من وصف شارع السعدون الذي توجد فيه عيادة د. ساسون أشهر طبيب في بغداد، فالشارع يغص بالمطاعم والمحلات التجارية والمكتبات والسينما والكباريهات والمقاهي ومعاهد الموسيقى، وفي مكان آخر عندما يتحدث عن كلية بغداد الراقية، التي ينتسب لها أبناء الطبقات الراقية. يمكن الإشارة الى وجود تقليد لم تأت الرواية على ذكره هو انتخاب ملكة جمال بغداد والذي فازت به زوجة اليهودي العراقي نعيم رنكور في العام ١٩٤٦ وهو بليونير يهودي عراقي يقيم الآن في لندن. والإشارة أيضا الى وجود ٧ آلاف طالبة في مدرسة البنات اليهودية. كل ذلك يعزز وجود طبقة ميسورة منفتحة على الحضارة والمدنية وتنتمي لقيم الحداثة.

مقابل ذلك، يلاحظ من خلال السرد فئات أخرى من الشعب العراقي تعيش في شروط قاسية، "هناك وقفت نساء قويات طرز الوشم وجوههن يمسن بقضبان خشبية طويلة لنكش الوقود والسيطرة على النار، وراء طبقة من الدخان الأزرق المتصاعد من التناير، والمختلط مع رائحة الخبز، وهناك جماعات من الفلاحين يحملون فؤوسهم".

يتحدث الروائي عن التعدد الذي يضم العرب والأكراد والتركمان وطوائف اليهود والصابئة والمسيحيين والمسلمين المتعاشين، والذي يتضمن تعددا في القيم والثقافات كانت الغلبة فيه لقيم العشيرة والبداءة والتعصب في مرحلة تشكل الدولة العراقية في إطار سيطرة الاستعمار البريطاني.

انتصرت قيم المجتمع الذكوري البدوية العشائرية عندما أحيل مصير الفتاة المراهقة سميرة والشاب حسن الى المجهول، وعندما قرر الشقيقان شطب حياة شقيقتيهما من الوجود، من خلال تدبير جريمة ما يسمى "شرف العائلة" التي تجسد الظلم الاجتماعي في أبشع صوره. وهزمت في الوقت نفسه قيم الحداثة وحاملها الطبيب المثقف الذي ينتمي للحزب الشيوعي العراقي. صحيح أن العراق شهد تعددا ثقافيا، بوجود نخبة من الأكاديميين الدارسين في الغرب وكبار الموظفين وبوجود حزب

شيعوي يطرح القضايا الاجتماعية بمفهوم تقدمي غير تعصبي، وبوجود نخب ثقافية وفنية في حقول السينما والمسرح والأدب. لكن ثقافة الحداثة وقيمها كانت الأضعف لأنها لم تتغلغل في الأوساط الشعبية وبقيت معزولة وسط تلك النخب، ولم يكن من الصعب هزيمة قيم الحداثة بالضربة القاضية في عقر دارها الرمزي، أي داخل عيادة ساسون التي تحدثت نساء الطبقة الراقية فيها عن أسرارهن وحياتهن الجنسية بحرية.

هزيمة قيم الحداثة لم تتوقف عند هذه الحدود، بل تواصلت مع رحلة "تفاحة" زوجة الطبيب ساسون بين أضرحة الأولياء. ذهبت به إلى "محلة الفضل" مرقد الإمام الفضل الذي يُزار كل ليلة جمعة وتوقد حوله الشموع، ويعتقد أن أداء هذا النوع من الطقوس يشفي المرضى. وانتقلت تفاحة بصحبة زوجها العليل إلى ضريح النبي ذي الكفل طمعا في العلاج الروحي، ولم تنس سؤال المشعوذين في أكثر من مكان، لكنها حصدت الفشل تلو الفشل، معمقة بذلك هزيمة الحداثة والعلمانية وقيمهما عندما وضعت الطب والعلم جانبا واعتمدت الخزعبلات وادعاءات المشعوذين.

الوجه الآخر لرحلة العلاج الروحي كان تحريك أبطال الرواية في الأزقة الجميلة والمباني التاريخية والبحث عن الأسرار والمعتقدات المتضاربة، من خلال قص شعبي أسر. الوصف ينقل القارئ من الكرخ إلى الرصافة وبابل ثم إلى البصرة وشط العرب، ويمتعه بجمال الأسواق والمباني والملابس والطقوس والطعام والعلاقات الاجتماعية والغناء.

نموذج التعايش الديني

"تنطلق أصوات الآذان، وعلى مسافة قريبة من الجامع الإسلامي تدوي أجراس الكنيسة ولم يزوج النبي موسى نفسه في هذا الصراع فأثر الكنيس اليهودي الصمت". هذا التنوع يعكس التعدد والتعايش السلمي بين الديانات والطوائف والمذاهب والملل المتواصل منذ قرون في العراق. تعايش ينأى به أصحابه عن التعصب والتمييز والاضطهاد. البعض يعزو التعايش بين اليهود والمسلمين لوجود أب مشترك لليهود والمسلمين هو إبراهيم الذي ولد في العراق.

جاء في رواية "على ضفاف بابل": "جرى تحرير القسم

الأكبر من العهد القديم على أرض بابل، لا في فلسطين ولا في مصر، هنا وضعت أسس الديانة اليهودية والايان بالتوحيد وهو ما يفسر اعتقاد البعض بأن نحو ٣٠٠ نبي وكاهن من أنبياء العهد القديم وكهنته قد دفنوا في بلاد ما بين النهرين. نهر الفرات تبارك بضريح النبي ذي الكفل وحزقيال، ونهر دجلة اعتز باحتضان عظام ولي آخر "عزرا" المدفون على الجانب الشرقي من النهر. في العراق توجد كل قبور أنبيائنا وأوليائنا وكتابتنا المباركين".

لكن الحاخام موشي الذي يرعى الكنيس اليهودي في طهران له كلام آخر. فقد قال للطبيب ساسون وزوجته بعد هروبهما إلى إيران: ان هذا كلام فارغ ويصف العرب بالكذابين والفظيعين ويقول: كل أنبيائنا المذكورين في التوراة مدفونون هنا في إيران بلاد الملك قورش، ويضيف: هنا مدفون دانيال وإستر، وحزقيال مدفون في أصفهان، والخروج الصحيح كان من إيران.

كانت الجالية اليهودية في العراق هي الأكثر ثراء، وقد احتلت مراكز حيوية في العديد من المهن وكانت الأكثر تعليما. كما كان لها حضور في الفن وبشكل خاص الموسيقى، فأوركسترا الكوبانجي معظمها من اليهود، والفنانة (سليمة مراد) التي رفضت مغادرة العراق لها حضور مميز، كذلك الفنانة (سلطانة) والفنانة (ناظمة إبراهيم) وكلهن يتبعن الديانة اليهودية.

وشارك مثقفون يهود في الحزب الشيعوي العراقي في المواقع القيادية وفي الصحافة والعمل النقابي. فكان أول شهيد للحزب الشيعوي يسقط العام ١٩٤٦ في مظاهرة منوثة للاستعمار البريطاني والحكومة الرجعية هو "شاؤول طويق" اليهودي الشيعوي الذي علقته صورته في مقرات الحزب كنموذج للمناضلين الشجعان. ويقال إن القيادي "يهودا صديق" أعدم مع زعيم الحزب الرفيق فهد في العام ١٩٤٩ ولكن جرى التستر عليه لتفادي ربط الحزب باليهود وتحصيل حاصل بالمشروع الصهيوني، واعتقل مئات من الشيوعيين بينهم يهود كثرة. الرواية "على ضفاف بابل" لم تدخل إلى هذه المنطقة (تجربة الحزب الشيعوي).

بيد أن الدليل العملي الأقوى على التعايش وتقبل الآخر الذي تقدمه الرواية هو: فوز الطبيب اليهودي ساسون بثقة المواطنين على اختلاف انتماءاتهم في مجال حساس جدا هو الطب النسائي. والثقة هنا تجسد التعايش في أرقى مستوياته.

لكن التعايش السلمي التاريخي انقطع بفعل " مشروع إسرائيل " الذي تدرج من فكرة في مؤتمر بال ، الى مشروع عبر وعد بلفور ، الى تطبيق بإقامة الدولة . الرواية تتحدث عن قرارات سحب الجنسية التي اتخذتها الحكومة العراقية ، المترافقة مع دعاية معادية دمجت اليهود العراقيين بدولة إسرائيل وبالمشروع الصهيوني المعادي للعرب وللعراق خلافا للسياسة التي اتبعها فهد زعيم الحزب الشيوعي الذي شكل هيئة مكافحة الصهيونية وفصل بين اليهود والصهيونية ومشروعها ، وخلافا لمواقف اليهود الذين رفضوا المشروع ورفضوا الهجرة الى إسرائيل . غير ان مواقف الحكومة العراقية تقاطعت مع أهداف الحركة الصهيونية في تهجير اليهود ، عندما تعاملت الحكومة مع مواطنيها اليهود العراقيين كشريك في المشروع الصهيوني وناصبتهم العدا ، وعبأت الشعب العراقي بروح العدا لليهود . ولعبت السياسة الاستعمارية البريطانية دورا في خلق فجوة بين اليهود وبقية الشعب عندما قامت بتفضيل اليهود على بقية أبناء جلدتهم ومنحتهم أفضلية في المناصب الحكومية والتجارة مقابل قمع القطاعات الواسعة من الشعب العراقي . وألمانيا النازية حرضت بدورها العراقيين ضد يهودهم فدعمت حركة رشيد عالي الكيلاني ويونس السبعوي المعروفين بعلاقتهم المشبوهة مع النازية . ووضعت الحركة الصهيونية من جهة أخرى في مركز اهتمامها هدف نقل اليهود العراقيين الى إسرائيل بأي ثمن . الرواية ركزت على السنوات القليلة التي سبقت إعلان دولة إسرائيل ، فلم تتحدث عن مجزرة " الفرهود " التي تعرض لها اليهود العراقيون العام ١٩٤١ وسقط فيها بين ١٠٠ - ٤٠٠ قتيل وأضعاف هذا العدد من الجرحى إضافة لأعمال سلب ونهب على يد مجموعات الشباب العراقية المتعصبة . غير أن الكثير من العراقيين فتحوا بيوتهم لحماية اليهود ، وتم التصدي للنازيين والمعتدين من قبل شباب عراقيين ، في حين لم تحرك القوات البريطانية ساكنا لحماية اليهود .

ينظر نزلاء مستشفى الأمراض العقلية لزميلهم الطبيب ساسون بريبة ويتعرض لاضطهاد على أيديهم ، اعتقادا منهم أنه يتجسس لمصلحة إسرائيل . ويجري فصل المعتقلين اليهود عن المعتقلين الآخرين الذي ينتمون للحزب الشيوعي في السجون العراقية على خلفية العدا والاختلاف وانعدام الثقة بين رفاق الحزب

الواحد ، الحزب المؤهل للتعاطي مع هذا التحول بطريقة أخرى ، لكنه شارك في المشكلة بعض الأعضاء اليهود في الحزب ميزوا بين السياسة التي اتبعها فهد وسياسة قيادة الحزب بعده التي تورطت في التمييز بين اليهود وغيرهم داخل صفوف الحزب . حادثان تكشفان النقلة النوعية في الانتقال من حالة التعايش والاحترام المتبادل بين اليهود وغيرهم ، الى حالة الكراهية والعداء . يقول صديق ساسون : البلد كله انجن ، جنون في كل مكان ، لكن شعبنا راح يندم على ما فعله باليهود ، إنها خسارة للعراق . وفي الجانب الآخر ينفجر ساسون في نوبة من النحيب ويردد : ضياع بلدك أنعس وأصعب من أن تضيع أعز حبيبة عندك . رغم كل ما حدث فإن هذه النقلة لم تكن بفعل أيديولوجية عنصرية لكنها كانت بفعل المشروع الكولونيالي الصهيوني وتداعياته التي تركت بصماتها على تحولات تاريخية في العراق والمنطقة .

أخيرا وفي معمعان التحولات اختارت " تفاحة " زوجة ساسون الفرار من العراق الى إيران محطة التجمع للذهاب إلى إسرائيل . كان في انتظار الأكثرية الساحقة من يهود العراق الفارين عملية بساط الريح التي نقلتهم من طهران الى إسرائيل . صدم اليهود عندما صعدوا في طائرات خالية من المقاعد ، أي أنها ليست للنقل الآدمي . وصدموا أكثر بإجراءات الاستقبال والرش بال د . د . ت ووضعهم في معسكرات بانتظار الاستيعاب في مساكن جديدة . ولاحظوا سياسة التمييز بين اليهود الشرقيين والاشكناز الغربيين . الشريحة اليهودية المترفة قلبت حياتها رأسا على عقب في كل الجوانب ، وأعضاء وكوادر الحزب الشيوعي العراقي التحق بعضهم في الحزب الشيوعي الإسرائيلي ، وأعداد من النخبة المثقفة واصلت نضالها بالاحتجاج على العنصرية والاستعمار .

د . عبد السلام ساسون انتقل الى مستوى جديد من المعاناة في إسرائيل ، وبدا أنه تشافى من مرضه من دون أن تقول الرواية لماذا؟ المفاجأة أنه عُين طبيبا للأسرى العرب في حرب ٤٨ بما لا ينسجم بتاتا مع تخصصه في الأمراض النسائية ، وبما يتعارض مع خبرته كأشهر طبيب في بغداد متخرج من جامعة أكسفورد في بريطانيا . واستغرب ساسون أيضا عندما حول الى بيت كانت تشغله أسرة فلسطينية هجرت من وطنها ومن بيتها . لقد

أحس المهاجر المطرود من العراق بالفلسطينيين وحرص على التواصل والتعاون معهم، كان يستقبلهم ويستمتع لمعاناتهم ويحاول التعاون معهم. وبلغ به الأمر حد تسليم المنزل الذي منحته له الوكالة اليهودية الى صاحبه الفعلي "عبد الغفور" الذي عاد من أميركا في زيارة لفلسطين.

في أثناء أدائه لمهمته في معسكر الاعتقال فوجئ الطبيب ساسون بالجندي العراقي الأسير "حسون" عشيق سميرة، الذي التحق بالجيش العراقي وكان ضمن القوات العراقية التي أرسلت الى فلسطين في حرب ٤٨ ووقع في الأسر. كان اللقاء بين حسون وساسون وديا وحميميا. وذات يوم كشف الطبيب عن السر الدفين الذي ظل يعذبه، اعترف أمام حسون بأن سميرة حية ترزق، وبأنها وضعت في مكان آمن في العراق، خلافا للوعد الذي قطعه ساسون لشقيقي سميرة والقاضي بالتخلص منها، التخلص بمفهوم الشقيقين كان يعني قتلها وغسل عارها، والتخلص منها بمفهوم الطبيب المثقف ساسون الذي يحمل رسالة انسانية كان يعني الحفاظ على حياتها وتأمينها من كل تهديد. ساسون كان آمينا على رسالته، عندما وضع الشابة الحامل من علاقة غرامية، عند صديقه الطبيب جورج مالك الأخصائي في الأمراض الباطنية ومدير مستشفى في البصرة. أنقذ ساسون سميرة من موت محقق من دون ان تعلم أسرتها وعشيرتها وعشيقها ايضا.

إن الكشف عن هذا السر حوّل الهزيمة الاجتماعية للطبيب المثقف الى نصف هزيمة. ولا يكتفي ساسون بالكشف عن السر، بل يحاول تصويب مسار علاقة الحب بين حسون وسميرة عندما ساعد حسون على الهرب من الأسر والعودة الى العراق بحثا عن حبيبته سميرة. قدم ساسون المال للأسير العراقي حسون، ويسّر له عملية الهرب من السجن. وينجح حسون فعلا في الهرب ويتغلب على كل الصعوبات في الطريق الى سميرة. وكانت مفاجأة حسون الصادمة عندما اكتشف

ان حبيبته سميرة تحولت الى "مومس" في بيت الشناشيل الأزرق الشهير في مدينة البصرة. اللقاء بين عشيقة مستلبة القلب والعقل وعشيق مشرد ومكسور اجتماعيا ووطنيا، كان بالمعنى الواقعي بلا مضمون إنساني، كان فاشلا ومحبطا بالمعنى الافتراضي. ولم يشكل حلا واقعا للعاشقين المنكوبين كما اعتقد حسون الذي غامر بحياته في رحلة العودة. إن حالة التخلف الاجتماعي وسلطة المجتمع الذكوري المعادية لحقوق المرأة من جهة، وإخفاق التحرر الوطني وعلاقات التبعية الذي رعته قوى اجتماعية عراقية رجعية من جهة أخرى - هذه الشروط ظلت قادرة على إنتاج المشاكل الشبيهة بمشكلة سميرة وحسون، وعلى منظومة القيم الرجعية. رغم ذلك يذهب الكاتب الى نهاية مغايرة عندما يقوم حسون بتحرير سميرة من بيت الدعارة، وينطلقان إلى المطار، في رحلة "نحو أيّ أرض في العالم لا يذبح فيها الناس من تستجيب لنداء الحب أو يغتصبون جسمها وروحها ويستبيحون حياتها وكيانها". الرواية تقدم حلا هروبيا سلبيا لأن المجتمع لا يملك الحل. تماما كما هي الحال مع الطبيب ساسون الذي لم يجد الحل لمأساته في إسرائيل. فالملتصع من بيئته وثقافته العراقية لا يجد حلا بمقايضة اقتلاع بآخر والحلول مكانه، لم يستوعب حل الاضطهاد الفردي والجمعي لليهود بخلق اضطهاد للشعب الفلسطيني كاضطهاد مضاد. ولم يستوعب ايضا ان الكولونيالية تملك حلا انسانيا للمنكوبين.

بقي القول: إن ميزة العمل الأدبي تتجلى في كشف المسكوت عنه وتفكيكه، والأدب هو الأشجع في طرح الأسئلة، وهذا ما فعلته رواية "على ضفاف بابل".

ملاحظة: القراءة لهذا العمل لا تنتمي إلى النقد الأدبي، كانت فكرة التقديم والعرض والنقد مرتبطة بالعرض والنقد السياسي والاجتماعي، علما أن الرواية أخضعت لنقد أدبي تراوح بين الإشادة بالرواية، وبين دمجها بالتقريرية.